وللحب ساعة تدق فى القلب!

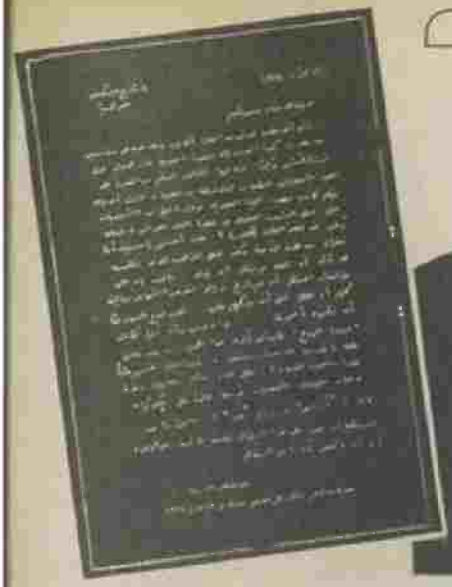

ما من شىء كان يصيبنى بالفزع فى مرحلة الدراسة الابتدائية مثل علم الحساب . كان حفظ جدول الضرب يساوى عندى الضرب . الضرب بالمسطرة على أصابع اليد لنسيانى اعداد هذا الجدول . ثم جاء الفصل الذى كنا نحن فيه بمسائل حسابية تدور حول أشياء كالألغاز لا يدخل عقل منها شىء . . كانت تحكى عن قطارين أحدهما يجرى بسرعة كذا والآخر يقابله بسرعة كيت ، وعلينا نحن التلاميذ المساكين أن نحسب لست أدرى ماذا ؟ . . أو عن الماء الذى يتدفق من حنفية ليصب فى بالوعة كمية من الماء ، والبالوعة يتسرب منها هذا الماء بكمية كذا . والمطلوب منا أن نحسب . ونعرف . لم أعد أذكر ماذا كان المطلوب أن نعرف ؟ . .

إن شبح هذه الامتحانات كان يلاحقنى بالذعر . إلى حد أن كبرت وأنا أكره أن أحسب شيئا . . حتى إذا جاءنى أحد يقول فانى أجد الأسهل أن أضعها فى جيبى دون عد . فالمهم أن تكون موجودة . وكميتها بالنظر نسترعى الاهتمام . حتى عرف كل من يعاملنى بقود أن يتجنب معى المفاوضة والمحاسبة . وأن عليه فقط أن يرضى ثم يظهر نقدا محزما ، ويسكت . وبذلك يتم المطلوب فى خير وسلام .

على الرغم من ذلك فانى عندما كبرت وتمت مداركى وعرفت فى أعماق الثقافة العليا ، احببت العلم ، وسعيت إلى الإحاطة بأهم ما توجه العقل البشرى من علوم . حتى العلوم القائمة على الرياضيات العويصة . كنت أتوق الرياضيات والمعادلات التى لا أفهمها بالطبع ، وأركز اهتمامى على النتائج . . قرأت « اينشتين » فى كتابه « نظرات على العالم » وما كتب عنه مثل « اينشتين والكون » محاولا الاقتراب من فهم نظريته عن النسبية ، كما حاولت فهم زميله « ماكس بلانك » فى نظرية « الكوانتا » . وقرأت واعجبت قراءة الرياضى الفرنسى « بوانكاريه » فى كتبه « العلم والفرض » و « والعلم والمنهج » و « قيمة العلم » وهى تمتاز بالأسلوب المضىء المبين . كما قرأت كتاب « ما هى الحياة » للعالم البيولوجى « شرودنجر » برغم اسلوبه المعقد واعترافه بأن كتابه ليس لعامة القراء . ثم كتاب الفيزيائى كاستلر . وهو صديق شخصى لى أقابله فى مؤتمرات اليونسكو الآن . وحاولت فهم كتابه عن المادة « ذلك المجهول » دون أن أخبره بذلك حتى لا أحرجه . لأنى لم أفهم شيئا كثيرا من أبحاثه العويصة . . إن الذى يهمنى من العلم ليس أسلوب البحث . ولكنه البحث ذاته فى نتائجه التى وصل إليها . ان الرياضيات والمعادلات فى العلم هى السلالم التى يرتقى عليها للوصول إلى القمة ، التى تستشرف منها أسرار الوجود . . وهذا ما اريده . هذا الاستشراف . ومما يهمنى أيضا معرفة طريقة التفكير عند فصائل البشر العليا مثل الفلاسفة والعلماء . أما الفلاسفة فأمرهم سهل . لأنهم هم الأقرب إلى الأدباء . ولكن العلماء بمناهجهم العلمية هم الأبعد والأصعب . وان كان « اينشتين » قد قرب الأمر إلى درجة بقوله : « إن العلماء فى حاجة أيضا إلى الوحى الذى يحتاج إليه الشعراء » .

ولقد قلت مرة : « ان الفنان والعالم . كلاهما يقوم عمله على تحليل وتركيب الحياة ومحاولة اكتشاف قوانين الطبيعة واعادة بنائها فى مخلوقات وموجودات جديدة » .

ولم يدهشنى بعد ذلك أن أعرف حب اينشتين لموسيقى موزار . وأنه كان فى أوقات راحته وفراغه يعزف على الكنجة لذلك الموسيقى العظيم . . كما عرفت أن زميله « ماكس بلانك » كان يحب هو الآخر يتنوفن ويعزف على البيانو مؤلفاته . . بل لقد علمت أيضا أن العالمين كانا يجتمعان فى بعض الأمسيات ليعزفا معا أعمال هذين الفنانين . . ولقد أكد عندى هذا التقارب الروحى بين العالم والفنان ما وجدته فى عالم يعزفه فى بلادنا . . هو عالمنا الرياضى المصرى على مصطفى مشرفة . فلقد سمعت عنه فى الثلاثينيات أنه كان من بين عشرة علماء فى العالم تعمقوا بوعلمائه فى فهم اينشتين ونظريته . وقد ذكره اينشتين نفسه فى بعض المناسبات العلمية فيمن ذكر . ولم أكن قد عرفته شخصيا . واستعدت أن نقوم بينا معرفة . ولا شىء يمكن أن يصل بينا . . إلى أن فوجئت ذات يوم برسالة تصلنى منه على غير سابق مناسبة أو تمهيد . كانت تلك الرسالة بهذا النص :

١٩ فبراير ١٩٣٤ ٣ شارع ديسكس
مصر الجديدة

عزيزى الاستاذ توفيق الحكيم

أذكر أنى عقب عودتى من الخارج أول مرة - بعد غيبة نحو ست سنين عن مصر - كنت أتحدث إلى سيدة انجليزية . فدار الحديث حول شارلس ديكنز وعالجنا المؤلف العظيم من المقدرة على تخليد شخصيات الطبقات المتوسطة فى عصره . قالت لا يوجد بينكم كاتب يصور

الحياة المصرية وجزء مما فيها من الشخصيات التي تمثل الشعب المصري في عصرنا الحالي.

على نحو ما فعله دكتور في عصر الملكة فكتوريا؟

قلت أعطني يا سيدتي أنا فقراء من هذه الناحية. ولكن لعل المؤلف الذي تطلبينه قد ولد أو لعله يوشك أن يولد. قالت إن على مؤلفك المنتظر أن يبارع لا الفرض الشخاص رواياته كلهم أو جلهم قبل أن يتركهم يفلتون.

قلت لندع السماء مما أن تظهره بأعجوبة. وبالأمس وأنا أقرأ كتابك «عودة الروح» عاودتني ذكرى هذا الحديث - وقد مضى عليه ما يقرب من عشرين - فساءلت نفسي جادا هل استجيب الدعاء؟ هل صار سلم وصارت زوبعة وصار حوله شخصيات قوية خالدة مثل «مكوبر» و«مستر أربن» و«سام قلر»؟ شيء واحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة هو الزمن. أما أنا فأكتفي بأن أثير السؤال..

على منطق مشرفة

أدهشتني هذه الرسالة من عالم متخصص في الرياضيات العليا؟!.. وقلت لنفسي: أيمكن لعالم رياضي من هذا الطراز أن يهتم برواية مثل «عودة الروح»؟!.. وكان من الطبيعي بعد ذلك أن تم بيننا المعرفة الشخصية. ودعاني إلى الغداء في منزله بنصر الجديدة، وعرفت كيف إنه لم يكن مغلقا على علوم تخصصه وحدها. بل إنه على اطلاع واسع بالثقافة كلها تختلف فروعها من فكر وأدب وفن، مع تذوق للموسيقى الرفيعة وغيرها من الفنون. وذكرني بالعالم اينشتين نفسه واهتمامه بالموسيقى وعزفه لها. وجعلنا نتحدث في كل شيء.. وعلى الأخص عن اينشتين، وكيف إنه كان في كونه يلعب مع الصبية، ويشاطرهم العاب الألغاز مثل الخلفات المعدنية التي يدخلون بعضها في بعض ثم يحاولون فصل كل حلقة عن الأخرى.

وكان الصبية ينجحون في ذلك، أما هو العالم الرياضي العبقري فكان يحار ويخطئ، ويعجز أحيانا وهم يسخرون منه وهو يضحك في بساطة واستمتاع..

وسألت مشرفة أن يبسط في نظرية النسبة عند اينشتين. فأجاب بأن خلاصتها في كلمتين: أنه لا يوجد زمن مطلق. وأن أي شيء يتحرك في الفضاء له وقته الخاص به وسرعته الخاصة لمرور الأحداث. وأراد أن يبسط من الأمر في صورة قال إني لا أشك لاحظتها بشعوري. وهي أن المحب الجالس ينتظر حبيبته يبدو الوقت بالنسبة إليه أسرع مما لو كان قد جاء وتحرك ليبحث عنها أو يقابلها. فعارضته قائلا له: إني باعتباري عاشقا سابقا لاحظت العكس. فأنا في الحب والعشق والغرام مدمن جلوس على الشاهي في انتظار الفرص التي لا تجيء. والمواعيد التي لا تتحقق. ولي قعودي وجمودي فوق الكراسي يدري أن الوقت أيضا قد جمد وقعد لا حراك به مطلق. أما إذا غنت الجوبة تمر أمامي مسرعة ونهضت لألحق بها وجريت خلفها.. فإن الوقت يجري هو أيضا. كما اسمع دقات قلبي تسبق خطواتي..

فقال ضاحكا إنه يقصد دقات الساعة الحقيقية. وليس دقات القلب الجبان. وتضحي أن أتحقق من ذلك بساعة مضبوطة أنظر فيها عند إصابتي بالحب. وأقارن الوقت لحظات القعود بالوقت لحظات الركوض.. فضحكت بشوري.

وقلت: هل تتصورني عند الحب امسك بساعة مضبوطة أنظر فيها وأنا قاعد وأنظر فيها وأنا أجري خلف الجوبة. وأحسب الدقائق والثواني وأقارن وأفكر في نظرية الأستاذ المحترم اينشتين؟!

فتأوه الدكتور المحترم اينشتين بعيدا.. فإن ساعة القلب المضبوطة أو غير المضبوطة إذا دقت فنحن لا نفكر في مساعدة الرياضة ولا في علماء الفيزياء الأجلاء!.. ومع ذلك فإن العلاقة بين الحب والزمن لا يمكن أبدا انكارها.. وفي هذا أمثلة عجيبة. فمن المعروف أن فتاة في العشرين أحبت وتزوجت شارلي شابلن وهو في الستين. وانجبت منه أطفالا عديدين.. دون أن تشعر بفارق السن والزمن بينهما. وفي بلادنا نجد أكثر من مرة في الريف خاصة، أن ترضى بنت العشرين بالزواج من شيخ في السبعين وتعيش معه سعيدة، في حين أنها لم تحمس لخطبتها إلى رجل لم يبلغ الأربعين. وقد سئلت أحداهن في ذلك فقالت إنها تشعر بفارق السن مع ذلك الذي في الأربعين، ولم تشعر بأي فارق سن مع الذي في السبعين لأنها تحبه.

فالحب في نظرها وقلبها لم يشعرها بالزمن. وهذا ما جاء عندي في «أهل الكهف» التي كتبتها من نصف قرن. وفيها أحببت بريسكا أحد أفراد الكهف وبينهما من الزمن ثلاثمائة سنة، ولم تشعر بالفرق. في حين أن المجتمع من حولها يشعر بذلك، ويقف حائلا بينها وبين ذلك الحب العجيب. أما هي فقالت: «إن الحب يخلق فوق الزمن كما تخلق الفراشة فوق الأزهار».. وبعد ترجمة هذا العمل إلى لغات اجنبية ذكر أحد النقاد الأوربيين اسم «اينشتين».. ولم أعد أذكر تفصيلات رأيه. ولكن الواضح أن الحب هو الذي يستطيع أن يؤكد كما النسبة في الزمن..

وتركنا الحديث في العلم. وبقي مشرفة يدير في بعض الأسطوانات الموسيقية على «الجراموفون». وجاء ذكر «موزار». فسألت عن سر تفضيل «اينشتين» له. فقال: ربما كان ذلك لصفاء موسيقاه.

فأكملت من عندي: خاصة أن هذا يأتي في وقت ليت فيه بطلان نظرية الأثير الذي يملأ الفضاء. فاقترن الفضاء بالصفاء..

فقال: يحسن عدم الاغراق في التفسيرات. والا سألنا وفسرنا: ولماذا كان يفضل «ماكس بلانك» بيتهوفن؟!.. إنه حب الموسيقى وكفى..

ولقد سألت فيما بعد صديقي «كاستلر» وهو الحائز أيضا على جائزة نوبل عن ابحاثه في المادة والضوء. وكنا على مائدة عشاء في دار اليونسكو. وهو قريب إلى نفسي لأنه ولد معي في نفس العام. وان كان يفصل بين الميلادين شهر أو شهران. وهو طويل القامة نحيف الجسم. ولذلك جعلت الاحظه وهو يأكل. وكنت قد ألقيت عليه سؤالي عن علاقة العلماء أمثاله بالموسيقى؟.. ولكنه انشغل عن الاجابة بازدراد لقمة من لون دسم من ألوان الطعام رأيت الحكمة تقضي في سننا بالحذر منه.. وشغلني أنا أيضا الملاحظة لأكل وأكله. ووجدت أني أكثر منه اقتصادا في تناول الطعام.. واقتصادي هذا لا يقتصر على طعامي، بل أيضا على طعام الآخرين. فما من وليمة حضرتها إلا اقتصدت في الأكل. كما لو كان من جيبي الخاص.. ولست أدري السبب.. أهو المحافظة على الصحة.. أم المحافظة على العادة؟.. لأبقى على عادتي في بقي.. فلا يتثقل الهم على مائدة الآخرين إلى مائدتي أنا.. والعياذ بالله..

توفيق الحكيم

اينشتين
العقل والعاطفة